﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: 5]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العِبادَةُ غايَةُ الخَلْق، وهي قائِمَةٌ على الحُبّ والرَّجاء والخَوف

بعدَ حَمْدِ اللّه تعالى وهو مُتَضَمِّنٌ للحُبِّ والتعظيم -كما سبق-، وذِكْرِ اسمين دالَّين على الرَّحمةِ وهما يَبْعَثَانِ على الرَّجاءِ، وذِكْرِ مُلْكِهِ ليوم الدِّينِ وهو باعثٌ على الخوف؛ ذُكِرت الغايةُ التي مِنْ أجلها خَلَقَ اللّه تعالى الجنَّ والإنسَ وَهِيَ العِبَادةُ، والعبادةُ تقوم على أصولٍ ثلاثةٍ؛ هي: الحُبُّ والرَّجاء والخوف[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

العبادةُ اتِّباعُ خطابِ الشَّرْعِ المُقترِنُ بالحُبِّ والخضوع

1) ﴿نَعْبُدُ﴾: مِنَ العبادةِ، وهي في الأصل: الذُّلُّ والخضوعُ[2]، ومنه قولُهُم: طريقٌ مُعَبَّد؛ إذا كان مُذَلَّلا، مِنْ تأثيرِ النَّاسِ فيه[3]، قال ابْنُ سِيدَهْ: "أصل العِبَادَة في اللُّغَة التّذليل؛ من قَوْلهم: طَرِيق مُعَبَّد، أَي: مُذَلَّل؛ بكثرةِ الوَطْء عَلَيْه"[4].

والعبادةُ تُطلق إطلاقين:

أحدهما: التَّعَبُّدُ، وتُعَرَّفُ بأنَّها: اتِّباعُ خطابِ الشَّرْعِ المقترِنُ بالحُبِّ والخضوع[5].

والآخر: المُتَعَبَّدُ به، وتُعَرَّفُ بأنَّها: "اسْمٌ جَامع لكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللّه ويرضاه مِنَ الْأَقْوَال والأعمال البَاطِنَة وَالظَّاهِرَة"[6].

والمُراد في الآيةِ: الإطلاقُ الأوَّلُ.

(1) جماعة من علماء نجد، الدُّرر السَّنيَّة في الأجوبة النَّجديَّة: 13/72.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيديّ، تاج العروس: (عبد).
(3) الأنباريّ، الزّاهر: 1/107.
(4) ابن سِيدَه، المخصَّص: 4/62.
(5) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 3/409.
(6) ابن تيميّة، العبوديّة، ص: 44.

الاستعانةُ طَلَبُ العَوْنِ والمُظاهَرَة والمُساعدة

2) ﴿نَسْتَعِينُ﴾: مِنَ الاستعانَةِ؛ وهي طَلَبُ العَوْنِ[1]؛ فالسِّين والتَّاء تدلُّ على الطَّلَبِ[2]، كما هو غالب معناها.

والعَوْنُ أو المعاونة: المُظَاهَرَةُ والمُسَاعَدَةُ[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

نخصُّكَ وحدَك بالعبادة، ولا نعبدُ أحدًا غيرَكَ، ونستعينُ بك في أمُورِنا كلِّها، ولا نطلب العونَ مِنْ أحدٍ غيرِكَ، ونعتمدُ عليكَ في جَلْب المنافع، ودَفعِ المضارِّ؛ إذ الأَمْرُ كلُّهُ بيدكَ وحدكَ.

نخصّك وحدك بالعبادة، ونستعين بك وحدك، ولا نعتمد على أحد سواك

وفي هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ كمالَ الإيمانِ يكون بإخلاصِ العبادةِ للّه تعالى، وبطلب العَوْن منه وحده دون سواه، وأنَّ العبادةَ أعلى مراتبِ الخضوع، ولا يجوز شرعاً ولا عقلاً فِعْلها إلا للّه تعالى، فلا يجوز للمسلم أن يَصْرف شيئًا من أنواع العبادات: كالدُّعاء، والاستغاثةِ، والذَّبْحِ، والطَّواف إلا للّه وحدَه، وأنَّ في إخلاص العبادة للّه وحده شفاءَ القلوب من داء التعلُّق بغير اللّه، ومن أمراض الرِّياء، والعُجْب، والكِبْرياء، ونحوها، وأنَّ مَن لم يُعِنْه اللّهُ على مقصوده، لم يَتحقَّقْ له ما يريده من أفعال الخير.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيّ وَالبَلَاغِيّ:

نُكَتُ العُدُولِ عَنِ الغَيْبَةِ إِلَى الخِطَاب:

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، جاء بعد الإخبار عن اللّه ﷻ بطريق الغَيْبَةِ – إذِ التَّعبيرُ بالاسم الظَّاهر في حُكْم الغَيْبَةِ –، وذلك بدءًا من ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، ولو كان الكلامُ بأسلوبِ الخِطَاب؛ لَقيل: (بِاسْمِكَ).

ثُمَّ جاء بعدها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ولو كان بأُسْلُوبِ الخِطَاب؛ لقيل: (الْحَمْدُ لَكَ).

(1) الرّاغب، المفردات: (عون)، وابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 1/103.
(2) جمالُ الدّين بَخرَق، فتح الأقفال وحلُّ الإشكال بشرح لاميَّة الأفعال، ص: 139.
(3) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: 3/144.

ثُمَّ جاءت هذه الآيَةُ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ بأسلُوبِ الخِطَاب؛ وكان مُقْتَضَى التَّلاؤُم في الظَّاهر مع ما قَبْلَهَا أَنْ يُقَالَ: (إيَّاه نعبدُ وإيَّاه نستعين)؛ ليَكُون أسلوبَ غَيْبَةٍ، كمَا أنَّ ما قبلَهَا كذلك. وهذا العدُولُ مِنَ الغَيْبَةِ إلى الخطاب يُعرف بـ: أُسْلُوبِ الالْتِفَات[1].

وهذا الفَنُّ مِنْ فُنُونِ الكَلَام هو خلاصةُ علم البيانِ التي حولَها يُدَنْدِن، وإلَيْهَا تستَنِدُ البلاغةُ وعَنْهَا يُعَنْعِنُ[2].

ولهذا الأسلوبِ صُوَرٌ، والواردُ في سورة الفاتحة هو الْتِفَاتٌ بالانتقالِ مِنْ أسلوب الغَيبة في﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ وَ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، إلى أسلوب الخطاب في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

وهذا العدولُ بالالتفاتِ له نِكَاتٌ، مِنْهَا:

الالتِفاتُ لتطْرِيَةِ نشاط السّامِع وتنبيهه

الأولى: أنَّ هذا الانتقالَ أحسنُ تَطْرِيَةً لنشاطِ السَّامع، وإيقاظًا للإصغاءِ إلَيْهِ مِنْ إجرائه على أسلوب واحِدٍ[3]، وهذه فائدَةٌ عامَّةٌ في غالبِ الالتفاتات[4].

الالـتـفـاتُ إلى الخطاب إشارَةٌ إلى استحضار المهابَة الإلهيّة، فـالـحـامِـدُ بين يدي ربّه

الثَّانية: أنَّ الإنسانَ لَمَّا حَمِدَ اللهَ وأثنى عَلَيْهِ ومجَّدَهُ؛ كأنَّه حضر بَيْنَ يَدَي اللهِ تعالى فصار العَبْدُ مخاطبًا رَبَّهُ كَخِطَابِ الحَاضِرِ عِنْدَهُ[5].

الثَّالِثَة: أنَّ فيه تنبيهًا على أنَّ قارئَ القرآنِ المُنعَمَ عَلَيْهِ ينبغي أن يَجِدَ مِنْ نفسه دافعًا إلى الإقبال على مَنْ يحمَدُهُ حتَّى كأنَّه عنده، وإلَّا ما كان قارئًا على الحقيقة، كمَا أَوْمأ إليه السَّكَّاكيُّ[6].

الـخـطـابُ تَوطِئَةٌ للدُّعاء، وأحسَنُ الطَّلَب ما كان خطابا

الرَّابعة: أنَّ التَّعبير بالخطابِ هَهُنا توطئَةٌ لِلدُّعاءِ الذي بَعْدُ في ﴿ٱهۡدِنَا﴾، ويوضِّحُ هذا: النُّكتةُ التي تَلِيها[7].

---

(1) الالتفات عند الجمهورِ: هُو «الانتقال مِن كُلٍّ مِن التَّكَلُّم أو الخطاب أو الغيبة إلى نظيرِهِ المخالفِ له؛ لنُكتةٍ»، ينظر: أحمد الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 212.

(2) ابن الأثير، المثل السَّائر: 2/135.

(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/14.

(4) هَذا هو المشهور عند البلاغيّين، وخالفهم ابنُ الأثير كما أوضحه في المثل السَّائر: 2/136.

(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/135.

(6) السَّكَّاكيُّ، مفتاح العلوم، ص: 202.

(7) فاضل السّامرائّي، لمسات بيانيّة، ص: 48.

الخَامسة: أنَّ أحسن الطَّلَبِ ما جاء عَنْ طريق الخطاب؛ وذَلِكَ أنَّ الكريمَ إذا سُئلَ على وجهِ الخطابِ؛ يَبْعُدُ أن يَرُدَّ السَّائلَ[1].

السَّادسة: أنَّ لفظَ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ ليس مختصًّا باللّه تعالى؛ إذْ قَدْ يُحْمَدُ غَيْرُهُ، بخلاف العبادَةِ؛ فهي للّه تعالى وحْدَهُ، ولذا لمَّا جاء ذِكْرُهَا؛ صُرِّحَ باختصاصها به سبحانه بأسلوب الخِطاب[2].

الحَمْدُ أَبْلَغُ إذا وَقَعَ على وجه الغَيْبَةِ، والعبادَةُ أحوَجُ إلى الخطاب

السَّابعة: أنَّ الحمد والثَّناء أَبْلَغُ إذا وَقَعَ على وجه الغَيْبَةِ، ولكنَّ العبادَةَ لا تكون إلا لِلّذِي لا يَغِيبُ، كما قال اللّه تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: 76]، فكان التَّعبير في مقام العبادةِ بالخطابِ أنسبَ[3].

مَعْرفةُ اللّه تدعو إلى خطابه والتضرّع بين يَدَيْه بالدّعاء

الثَّامنة: أنَّ مبدأ الخلق غَيْبَتُهُم عن اللّه سبحانه، وقُصُورُهم عن خطابهِ؛ فإذا عَرَفُوه بصفاتِهِ اللَّائقة بعظمتهِ، وتوسَّلوا لِلقُرب مِنْهُ تعالى بحمده والثَّناء عَلَيْه؛ تأهَّلوا لخِطَابِهِ[4].

نِكَاتُ التَّعْبِيرِ بِالنُّونِ فِي ﴿نَعۡبُدُ﴾:

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وردت في سياق الدُّعاء، والمُنَاسب لمقام الدُّعاء: الخضوعُ حَالًا ومقَالًا، فكان مُقتضى الظاهر أَنْ يُقَال: (إِيَّاكَ أَعْبُدُ وَإِيَّاكَ أَسْتَعِينُ) بدلًا من التَّعبير بـ: ﴿نَعۡبُدُ﴾ و﴿نَسۡتَعِينُ﴾ المُشْعِرِ بالعظمَةِ؛ فإنَّ تعظيمَ الدَّاعي نفسَهُ لا يَليقُ.

بصيغة (نَعبُدُ) يُعبِّرُ المُؤمنُ عن نَفْسِه وإخوانه بالعبادة التي خُلِقوا من أجلها

والعُدولُ عَنِ التَّعبير بـ(أَعْبُدُ) و(أَسْتَعِينُ) إلى التَّعبير بـ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ له نِكَاتٌ، مِنْهَا:

الأولى: أنَّ هذا التَّعبير إخبارٌ عن جِنس العباد، والقارئُ -مُصليًا

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 1/198.
(2) ابن الأثير، المثل السّائر: 2/137.
(3) فاضل السّامرائي، لمسات بيانيّة، ص: 48.
(4) حسن طَبل، أسلوب الالتفات في القرآن الكريم، ص: 107.

كان أو غيرَه- فَرْدٌ مِنْهُمْ، فيكون قد أَخْبَرَ عن نَفْسِهِ وعن إخوانِهِ المؤمنِينَ بالعبادة التي خُلِقُوا لأجلها، وتَوَسَّطَ لَهُمْ بِخَيْرٍ[1]، وعلى هذا التَّوجيهِ فالنُّونُ لِلجَمع لا للتَّعظيم.

التّعبيرُ بنون الجمع (نَعبُدُ) أدخَلُ في هَضْمِ النّفس لا في تعظيمها

الثَّانية: أنَّ التَّعبير بالنُّون هَهُنا أنسب؛ إِذْ لَوْ قيل: (أَعْبُدُ) و(أَسْتَعِينُ) لكان فيه مِن تعظيم الدَّاعي ما ليس في الأوَّل؛ إِذْ يكون قد عظَّم نفسَهُ بجَعْلِهَا وحَدَّها أهلًا لعبادة الله [2]ﷻ، قال الشَّوكاني: "إِنَّ المقام لمَّا كان عظيمًا لَمْ يَسْتَقِلَّ به الواحدُ؛ اسْتِقْصَارًا لنفسه واستِصْغَارًا لها، فالمجيءُ بالنُّون لقصد التَّواضع لا لِتَعْظِيم النَّفْس"[3].

التّعبيرُ بنون الجَمْعِ (نَعبُدُ) إيماءٌ إلى أهمّيَّة الجماعة، وإغاظةٌ للكافرين

الثالثة: أنَّ في التَّعبير بالنُّون إشارةً إلى أهميَّة الجماعةِ في الإسلام، مِمَّا لا يُفيده (أعبد) و(أستعين)[4].

الرّابعة: أنَّ فيه إغاظةً لِلمُشْرِكينَ بأنَّ أهل الإسلام قد صاروا في عِزٍّ ومنَعَةٍ؛ وذلك أنَّ هذه المحامدَ ناشئةٌ مِنْ جماعاتٍ متكاثرةٍ[5].

تقديمُ المعمول يُفيدُ القَصرَ عند أغلب أهل البيان:

تَعْظِيمُ اللهِ وَقَصْرُ العِبَادَةِ عَلَيْهِ ضرورةٌ يقتضيها الإيمانُ الخالص

من زاوية أخرى، فإنَّ في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تقديمًا وتأخيرًا، والأصل: (نَعْبُدُكَ وَنَسْتَعِينُكَ).

وفائدةُ التَّقديم هَهُنا: الدّلالة على القصرِ[6]، قال السُّيوطيُّ: "كاد أهل البيان يُطْبِقُون على أنَّ تقديمَ المعمول يُفيد الحصر، سواء كان مفعولا أو ظرفا أو مجرورا، ولهذا قيل في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، معناه: نخصُّك بالعبادةِ والاستعانَةِ"[7].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/135.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/135.
(3) الشّوكاني، فتح القدير: 1/27.
(4) فاضل السّامرائي، لمسات بيانيّة، ص: 43.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/186.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/17.
(7) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 3/174.

فيكون المعنى: نعبدُك ولا نعبد غَيْرَكَ، ونستعينُ بك ولا نستعين بغيرك.

ولهذا التَّقديم فَائِدةٌ أخرى؛ وهي: تعظيمُ اللّه ﷻ بِذِكْرِهِ أَوَّلًا، ولِمَا في التَّقديم مِنَ الاهتمام بالمعبودِ والمستعانِ به[1].

نُكَتُ تَقْدِيمِ العِبَادَةِ عَلَى الِاسْتِعَانَةِ:

بـلاغـةُ الـقـرآن أَرْقَـــى مـن أن تَقُوم على مُجَرّد اعتباراتٍ لفظيّة

وقُدِّمت العبادةُ على الاستعانةِ في الذِّكْرِ وهي مُؤَخَّرَةٌ في المعنى، في ظاهر كلام الواحديِّ[2]؛ فإنَّه قال: "لم قُدِّم ذكرُ العبادة على المعونة، وإنما المعونة بها تكون العبادة؟ والجواب: أنَّ الواو عند النحويِّين لا تُوجِب ترتيبا، وإنَّما هي لِلْجَمْع"[3].

وكأنَّ تأخير الاستعانةِ عِنْدَهُ إنَّما هو لمراعاةِ الفواصلِ[4]؛ إذْ لو قيل: (إيَّاك نستعين وإيَّاك نعبدُ)؛ فات التَّناسبُ في فواصلِ الآيِ كما هُو ظاهرٌ.

ومخالفةُ الأصلِ لمجرَّدِ رعاية التناسُبِ الصَّوْتِيِّ دونَ نظرٍ إلى المعنَى، فيها ضربٌ مِنَ الضَّعْفِ، وبلاغَةُ القرآن أَرْقَى من أن تَقُوم على اعتبارٍ لفظيٍّ محضٍ[5].

وقد ذهب جمعٌ مِن أهل العلم إلى أنَّ لتقديم العبادَةِ على الاستعانَةِ اعتباراتٍ معنويَّةً، مِنْ ذلك:

الاستِعانةَ مِن أنـواعِ العِبادة فَـهِـيَ مـن بـاب ذِكْرِ الخاصّ بَعْدَ الـعـامّ، ومِـنْ تَقْديم الوَسيلة قبلَ الطّلب

أَوَّلًا: أنَّ الاستعانةَ مِن أنواع العبادة، فذَكَر العبادةَ أوّلًا، ثُمَّ ذَكَرَ فَرْدًا مِنْ أَفْرَادِهَا[6].

(1) محمد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/65.
(2) وكلام الرّاغب في تفسيره: 1/59، يُشبهه.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 1/517.
(4) وقد صرَّح بهذا السّببِ القِنَّوجيّ في فتح البيان: 1/49، إلا أنَّه لم يجعله سببًا مستقلاً للتّقديم، بل أردفَهُ بنكتةٍ معنويّة، وينظر: النّيسابوريّ، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 1/34.
(5) بنت الشاطئ، التّفسير البياني: 1/35.
(6) البغوي، معالم التّنزيل: 1/54.

وعلى هَذَا، تَكُونُ الآيَةُ مِن باب الإطناب؛ بذِكْرِ الخاصِّ بعد العامِّ[1]؛ تنبيهًا على خِصِّيصَةٍ ومَيْزَةٍ في الفرد الخاصِّ.

ثَانيًا: أنَّ ذلك من باب تقديم الوسائل قبل طَلَبِ الحاجات؛ وذلك أقربُ إلى الإجابة[2].

العِبادةُ غايةٌ والاستعانةُ وَسيلة

ثالثًا: أنَّ الاستعانة وسيلةٌ إلى العبادةِ؛ إذْ لولا عَوْنُ الله للعبدِ ما صَدَرَتْ منه عبادةٌ؛ فقُدِّمَت العبادةُ لِكَوْنِها الغايةَ، والاستعانةُ وسيلةٌ[3].

العبادةُ بلفظ الجَلالة ألْصَقُ، والاستِعانة إلى الرُّبوبيّة أخْوَجُ، فَجاءَ ذِكْرُهما على وَفق ترتيبهما في السّورة

رابعًا: أنَّ قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يتعلَّق بالألوهيَّة وباسمه سبحانه (الله)، وقولَهُ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يتعلَّق بالرُّبوبيَّة وباسمه سبحانه (الرَّبّ)، فقُدِّمَ ما يتعلّق باسمه (الله) على ما يتعلّق باسمه (الرَّب)؛ ليتناسبَ ذلك مع المَذْكُورِ أَوَّلَ السُّورة[4]؛ فإنَّ اسمَهُ سبحانه (الله) مقدَّمٌ على اسمه (الرَّبّ).

وعلى هذا التَّقرير يكون هذا التَّقديم بمنزلة اللّفِّ والنَّشر المرتَّب.

إتباعُ العِبادة بالاستعانة تَبَرُّؤٌ مِن الحَوْل والقُوَّة؛ فلا قُدرَةَ للعبد على العبادة إلاّ إذا استعانَ بخالقه

خَامِسًا: أنَّ العبادَةَ طلبٌ للهِ، والاستعانةَ طلَبٌ مِنَ الله؛ فقُدِّمَ ما كان لله على ما كان مِنْهُ[5].

ولمّا أَسْنَدَ المتكلِّمُ العبادةَ إِلَى نفسه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وكانَ ذلك ممّا قَدْ يُوهم اعتدادًا وتبجُّحًا بما يَتَعَبَّدُ لله به، أعقبه بـ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إيماءً إلى أنَّه يتبرّأُ من حَوْله وقُوّته، وأنّ العبادةَ لا تَتِمُّ إلَّا بِعَوْنِ الله وتوفيقه[6].

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 39.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/14، والنَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/32، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/44.
(3) ابن أبي الرَّبِيع، تفسير الكتاب العزيز وإعرابه، ص: 390، وابن القيّم، التّفسير القيّم، ص: 70، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/135.
(4) ابن القيّم، التّفسير القيّم، ص: 70.
(5) ابن القيّم، التّفسير القيّم، ص: 71، وابن القيّم، مدارج السّالكين: 1/98.
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/29-30، ومحيي الدّين زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 1/89.

فَائِدَةُ تَكْرَارِ الضَّمِيرِ ﴿إِيَّاكَ﴾:

تَكريرُ الضّمير (إيّاك) يُفيدُ القَصْرَ في العبادة والاستعانة كِلَيْهما

وكُرِّرَ الضَّميرُ (إيَّاكَ) في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولم يأتِ: (إيَّاك نعبد ونستعينُ)؛ لِنُكَتٍ، مِنْهَا:

أَوَّلًا: لو قيل: (إيَّاك نعبد ونستعين)؛ لكان مُفيدًا لقصر العبادةِ على اللّه، ولم يكن قصر الاستعانةِ عَلَيْهِ ظاهرًا؛ لِاحتمال أَن يُقَدَّر مفعولُ ﴿نَسْتَعِينُ﴾ مؤخَّرًا، فيكون التقديرُ: (إيَّاك نعبد ونستعينُكَ)[1]، فكُرِّرَ ﴿إِيَّاكَ﴾؛ لِئَلَّا تفوتَ إفادةُ القَصْرِ مع فِعْلِ الاستعانَةِ.

تَكريرُ الضّمير (إيّاك) أدْخَلُ في مقام المَدْح، وأوقَعُ في تفخيم الخطاب

ثانيًا: أنَّ تَكرارَهُ أعظَمُ في مقامِ المدحِ، ولذا كَانَ قولُكَ: (بكَ أَنْتَصِر، وبك أحتمي، وبك أَنَالُ مَطَالبي) أبلغَ وأمدحَ من قولك: (بك أنتصر وأحتمي)[2].

ثالثًا: أنَّ تَكرارهُ أدخَلُ في تعظيم الكلام وتفخيمه[3].

رابعًا: كُرِّرَ ﴿إِيَّاكَ﴾؛ ليكونَ كُلٌّ مِنَ العبادة والاستعانة قد سِيقَ في جملةٍ مستقلَّةٍ، ويكونَ كلٌّ مِنْهُمَا مقصودًا بالأصالَةِ[4].

تَكريرُ الضّمير (إيّاك) دَعْوَةٌ إلى المُداومة على ذِكْر الله تعالى، وأبلَغُ في إظهار التّوكّل عليه سبحانه

خامسًا: أنَّ فيه تعليمًا للعبادِ بتجديد ذِكْرِه سبحانه عندَ كُلِّ أمرٍ؛ لأنَّ المرادَ بِكَافِ الخِطَاب في ﴿إِيَّاكَ﴾ هو اللّه تعالى[5].

سادسًا: أنَّ تَكرارَهُ أبلَغُ في إظهار الاعتماد على اللّهِ سبحانه[6].

سابعًا: لو تُرك تَكراره بِأَنْ قيل: (إيَّاك نعبد ونستعينُ)؛ لَتُوُهِّمَ أنَّه لا يُتَقَرَّب إلى اللّه سبحانه إلَّا بالجمع بين العبادة والاستعانَةِ[7].

(1) الكرمانيّ، أسرار تكرار القرآن، ص: 66، ويُقارَن بما ذكره القرطبيُّ في الجامع لأحكام القرآن 1/146.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/59.
(3) أبو المظفر السّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/37.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/44، والهرريّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 1/74.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 1/93.
(6) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/59.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 1/93، وفاضل السّامرائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 42.

ثامنا: كُرِّرَ الضَّمير ﴿إِيَّاكَ﴾؛ لئلَّا يُتوهَّمَ استواءُ القَصْرَيْنِ، والواقعُ: خلافُهُ؛ فَإِنَّ القصرَ في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقيقي تحقيقيٌّ، والقصرَ في ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حقيقيٌّ ادِّعائيٌّ؛ إِذْ إنَّ المسلم قد يستعين غيرَ اللّه تعالى، كيف وقد قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المَائِدَة: 2]، ولكنَّه لا يَسْتَعِينُ في عظَائِم الأمور إلَّا باللّه، ولا يَعُدُّ الاستعانةَ حقيقةً إلَّا الاستعانةَ باللّه تعالى[1].

القَصْرُ في العبادة حَقيقيّ، والقَصْرُ في الاستعانة ادِّعائيٌّ؛ إذ يجوزُ الاستعانةُ بغير الله في غير الأمور العظام

الفرقُ بين تقديم الحمد في ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وتقديم الضمير في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾:

وفي قوله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قدَّمَ الضَّميرَ الدَّالَّ على اللّه تعالى، وفي قولِه قبلُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قَدَّم الحَمْدَ؛ وذلك أنَّ الحَمْدَ يكون للّه ويكونُ لغيرِه، فقد يُحْمَدُ غيرُ اللّه حَمْدًا خاصًّا، فإذا قيلَ: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾؛ كان محتملًا أنَّه للّه أو لغيره، فإذا قيل: ﴿لِلَّهِ﴾؛ تَعيَّنَ أَنْ يكون للّه، وهذا بخلاف العبادةِ؛ فإنَّها لا تكون إلَّا للّه تعالى، ولو قيل: ﴿نَعْبُدُ﴾ أَوَّلًا؛ لظُنَّ أنَّ هذا مِن جِنْسِ الحَمْدِ يَصْلُحُ للّه ولغيره، ثُمَّ يأتي تَقْيِيدُهُ بعدُ، وهذا باطلٌ[2].

اشْتِرَاكُ الحَمْدِ، وَخُصُوصِيَّةُ الْعِبَادَةِ

دلالة حذف المفعول على العُموم:

وفي قوله سبحانه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، جاء فعل الاستعانة مطلَقًا، أي: لم يُحَدَّد المُستعانُ عليه، وذلك لإفادَةِ الشّمول؛ إِذْ إنَّ حذفَ المعمولِ مُؤْذِنٌ بالعُمُوم[3]، فتَتَنَاوَلُ الاستعانةُ كلَّ مُستعانٍ عَلَيْهِ، والمَعْنَى: نَسْتَعِينُ بكَ وَحْدَكَ على جَمِيعِ أُمُورِنا[4].

المؤمن يستعينُ باللّه تعالى في كلّ شؤونه وحاجاته جليلِها ودَقيقِها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/186.
(2) الرازيّ، التّفسير الكبير: 1/212.
(3) أحمد الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 156.
(4) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/65.

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد الأول

من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة